

# أمن وكيمياء وصواريخ

## غسان سلامة\*

الايوتوماتيكيين الى ما تقره الأنظمة القائمة. لكنه شتان ما بين القرار المبدئي والتنفيذ العملي. فالقمة العربية قد عودتنا على القرارات الخطيرة التي يتوقف مفعولها قبل ان يجف الحبر الذي كتبت به. ان لا يكفي ان يتخذ الحكام العرب الموقف الصائب من مسألة ما، بل ينبغي عليهم اقناع الأطراف الدولية الأخرى به، فوراً بعد نشوء التوافق العربي عليه. وبالذات، كيف يمكن ترجمة قرار القمة بمبادرات دبلوماسية تخدم الاهداف التي انعقدت القمة في سبيلها؟

للاجابة عن هذا السؤال، من الضروري التذكير ولو السريع بالصورة الاستراتيجية الحالية في المنطقة وعناصرها كما يأتي:

- لدى اسرائيل عدد (يفوق المائة في الارجح) من الرؤوس النووية، بينما البرامج النووية العربية ما زالت في مراحل متاخرة من التطور، بما فيها البرامج المعروفة في العراق وسورية ومصر وليبيا.

- في المقابل فان الاسلحة الكيماوية انتشرت على نطاق واسع، ويبدو ان العراق حصل على «الكيمواي المزوج» الشديد الفعالية، ولكن دولا اخرى في المنطقة طورت ترساناتها الكيماوية على ما يبدو بدءا بايران (التي استعملت نوعا بدائيا منها سنة ١٩٨٥) واسرائيل، وانتهاء بسورية وليبيا ومصر. ويقدر المخزون العراقي، في المصادر الغربية، بحوالي ٣٠ الف طن.

- يبدو ان بلدين على الاقل (العراق واسرائيل) طورا (او هما في صدد تطوير) بعض الاسلحة الجرثومية.

- هذه الاسلحة لا تكفي بذاتها، بل ينبغي على الدول ان تكون ايضا قادرة على ايصالها. وهنا يجب القول ان دول المنطقة اصحت واسعة القدرة في هذا المجال. فطائرات «فالكون» و«فانتوم» و«سكايهوك» الاسرائيلية قادرة على حمل «رؤوس» نووية او كيماوية لمسافة حوالي الف كيلومتر، ولدى اسرائيل القدرة على تموين هذه الطائرات بالوقود خلال التحليق، مما يزيد شعاع عملياتها. اما الجانب العربي فطور قدراته بالوصول على طائفة «سوخوي» - ٢٤، و«ميج» - ٢٩، والأولى لها شعاع يفوق ١٨٠٠ كيلومتر، ناهيك عن تمكن العراق من تطوير تكنولوجيا التموين بالوقود خلال التحليق.

- وان فضلت هذه الدول، فقد اصبح لديها عدد هائل من الصواريخ المتوسطة المدى القادرة على حمل رؤوس كيماوية

الموقف نظري في الاساس، فهناك فائدة كبرى من اعادة تكراره، خصوصا في الازمنة الحالية حيث نرى الجبارين يقدمان على سلسلة من القرارات البالغة الأهمية في مجال وقف سباق التسلح بينهما، والالغاء التدريجي لترسانة اسلحتهما الكيماوية، ناهيك عن انتهاء الحرب الباردة من اساسها. وينبغي على العرب التمسك بهذا الموقف المبدئي، اولاً لأنه موقف صحيح من الناحية الإنسانية البحتة، وثانياً لثلا يظهر في العالم كأنهم ذاهبون الى التسلح بشئى اناوعه والناس منه راجعون.

- اما الجانب الثاني فيتعلق بمشاريع نزع السلاح الشديد التدمير في منطقتنا. وموقف القمة كان واضحا وصحيحاً. اما نزع كل اصناف اسلحة الدمار الشامل، واما الابقاء عليها كلها. اما ان ينزع العالم من الاسلحة الكيماوية في العراق او ليبيا او سورية ويستكت من الرؤوس النووية التي تكدسها اسرائيل، فهذا أمر غير مقبول، وقد اصاب القادة العرب هنا ايضا بتاكيدهم هذا الربط.

- اما الجانب الثالث في موقف القمة فهو تأكيد الرابطة العضوية بين سباق التسلح في الشرق الاوسط وبقاء كل النزاعات الدامية في المنطقة مفتوحة على المجهول. ذلك أنه من الطفولية الاعتقاد ان التسلح يتم لذاته، او ل مجرد نزوات لدى حكام هذا البلد او ذاك. نحن نعلم طبعاً ان لدى بعض حكام المنطقة شهوات قوة وتسلط مبالغاً فيها، ونعلم تماماً ان عدداً من صفقات السلاح الكبرى قد تم لأن بعض المسؤولين يبحثون عن العمولات الهائلة لتدميرها، لكن هذه بالنهاية امور ثانوية امام الاعتبار الاساسي، وهو التالي: ما دام ان النزاعات الإقليمية المختلفة في المنطقة، وفي طبيعتها النزاع العربي - الاسرائيلي لم تجد حلاً، فمن الطبيعي ان يبقى سباق التسلح قائماً، وان تسعى الدول سعياً حثيثاً الى الحصول على اسلحة أكثر تقدماً من الناحية التكنولوجية وأكثر ارهايباً للعدو المحتمل. وبكلام أدق: ما دام ان اسرائيل تحتفظ بهذا المزيج المربع من التفوق العسكري الهائل ومن التفرقة السياسي المعهود لدى زعمائها، فمن الطبيعي ان تسعى الدول العربية الى مزيد من التسلح، ومن التسلح الأكثر تدميراً. ووقف هذا السباق مرتبط كما قالت القمة العربية عن حق «في اطار الحل الشامل والعادل للنزاع في المنطقة».

هذا هو موقف القمة العربية في جوانبه الثلاثة، وعلينا نحن مشتر العرب، اعتباره صائباً، حتى لو لم تكن من المتحمسين

في البدء كانت الصواريخ، والرؤوس الكيماوية. العراق يهدد بتدمير نصف اسرائيل، اذا مست اسرائيل بمنشأته العسكرية. وليبيا اتهم الغرب، ذات اليمين واليسار، بمحاولة القضاء على مصنع الرابطة. وكان الجو الذي اوجدته هذه التهديدات السبب (او هو المبرر، والله اعلم ايهما اصح) الذي انعقدت من اجله قمة بغداد، بعدما وضعت تحت شعار فضفاض، هو «الأمن القومي العربي».

اقول شعار لأن «الأمن القومي العربي» تعبير نشأ منذ حوالي عقدين من الزمن، واستعمل في كل المجالات: من مياه النيل الى سياسات التعريب في الجزائر، ومن استيراد الغذاء الى معالجة التلوث في البحر. وصدرت الكتب تباعاً عن «الأمن الغذائي»... و«الأمن العسكري» و«الأمن الثقافي» ناهيك عن «الأمن البيئي»... حتى ضاقت أنفسنا من تكرار التعبير، فتوصلنا الى اقتناع عميق بان أي كاتب عربي، او باحث زميل، يخفي في اعماقه رجل أمن. والافلاما أصبحت الكلمة بهذا الانتشار الواسع، في أي موضوع كان؟ وكان عزأؤنا اقتناعاً ضمنياً بان الباحثين العرب يعلمون تماماً ان من هم في كراسي السلطة لا يهمهم في النهاية الا موضوع الأمن. لذلك قام الكتاب، عن وعي او عن غير وعي، بسرقة التعبير وباستعماله الواسع في كل المجالات، على ان لم ترغم كلمة «الأمن» السحرية نظر صاحب القرار الى مسائل لا يهتم بها مثل الانفجار السكاني او العجز الغذائي او انتشار التصحر او تلوث البيئة. كان الكاتب يقول للحاكم: اسمعني فانا ايضا رجل أمن!

لذلك ف «الأمن القومي العربي» هو من الناحية الفلسفية شعار سحري، وليس مفهوماً علمياً. انه ضوء احمر يشعله الكاتب لجلب الانتباه الى مواضيع تشغلهم، وتشغل الناس ولا يهتم لها الحكام. من هنا كان تخوفنا ان تنتهي قمة بغداد الى ترداد الشعارات البالية، الخالية من أي مضمون. غير اننا، كغيرنا من الناس، فوجئنا بغير ذلك، وشاركنا غيرنا الارتياح الى سلسلة من القرارات في مواضيع شتى، لا تخلو من الوضوح والدقة، وان كان تنفيذها يتطلب طبعاً مستوى من التكامل العربي غير الذي عهدناه في السنوات الماضية.

وعالجت القمة، بين أمور أخرى، المسألة التي كانت وراء انعقادها، أي اسلحة الدمار الشامل، وهي تلك الاسلحة غير التقليدية التي تشكل نقلة نوعية خطيرة في مستوى الدمار الذي تحدثه، ويقصد بذلك التعبير اجساماً الاسلحة النووية، والكيماوية والبيولوجية (او الجرثومية). والحق يقال ان قرار القمة في هذا المجال كان صائباً في جوانبه الثلاثة الأساسية:

- فالقمة قررت اولاً انها تدعو، كمختلف الدول في العالم، الى نزع هذه الاسلحة، وعدم ادخالها الى المنطقة. وعلى رغم ان هذا

تجمعاته السكانية ومدنه. ماذا يقدر العرب ان يعملوا ازاء وضع كهذا؟ هذه عناصر جواب:

١- العمل على ربط وقف سباق التسليح بتنفيذ القرارات الدولية. فالقانون الدولي غير قابل للتجزئة، وعلى الدول العربية ان توضح استعدادها لوقف سباق التسليح اذا ابرز المجتمع الدولي جدية في تطبيق القرارات المعروفة من ٢٤٢ و٢٣٨ المتعلقان بانسحاب اسرائيل من الضفة والقطاع، و٤٢٥ المتعلق بانسحابها من لبنان و١٩٨٥ المتعلق بانهاء الحرب العراقية - الايرانية.

٢- التاكيد ان اسرائيل لم توقع بعد على اتفاق الحد من انتشار الاسلحة النووية بينما وقعها العراق والسعودية ومعظم الدول العربية، وتاكيد التناقض في موقف اسرائيل التي تقول انها لن تكون البائدة بادخال الاسلحة النووية بينما هي ادخلتها بالفعل. وفي هذا المجال ينبغي التركيز على ان الاسلحة الكيماوية ليست ابدا رادعا كافيا في مواجهة السلاح النووي وليست ابدا بفعاليته.

٣- تأييد الموقف السوفياتي القائل ان هناك رابطا بين نزع السلاح الجاري في اوروبا، وسباق التسليح في الشرق الاوسط. فمن غير المعقول ان يجري هذان المساران في اتجاهين معاكسين تماما، كما هي الحال حاليا. وبالتالي ينبغي اظهار ان نزع السلاح في اوروبا لم يكن ممكنا لولا حل النزاعات (ومنها قسمة المانيا، او الحرب الباردة) وبالتالي فنزع السلاح في الشرق الاوسط يتطلب الجدية نفسها في حل النزاعات السياسية تهيئة لوقف سباق التسليح.

٤- تجاهل قرار الدول السبع بمنع نقل تكنولوجيا الصواريخ. فهذا القرار كان غريبا في اهدافه ولم توقع عليه دول مهمة مثل الاتحاد السوفياتي او الصين. ناهيك عن ان هناك دولا عدة مثل الأرجنتين والصين وكوريا الشمالية مستعدة لتصدير تكنولوجيا الصواريخ لاسباب تجارية بحتة لا علاقة لها بالجوانب السياسية.

٥- واخيرا التاكيد على العلاقة العضوية بين قيام دولة فلسطينية مستقلة ووقف سباق التسليح، ان نعلم جميعا ان سباق التسليح الاقليمي من اهدافه مواجهة مرحلة قد تحصل قريبا تخمد فيها الانتفاضة او تضرب، من دون تحقيق اهدافها. انذاك سيصبح النزاع مرة اخرى في جوهره صراعا بين العرب واسرائيل، وسياتي يوم تعود فيه الدول العربية طرفا مباشرا، ان لم تستطع الانتفاضة تحقيق الحق الفلسطيني. وان كان من شعاع مناسب للمرحلة المقبلة فهو الآتي: وحدها الدولة الفلسطينية المستقلة قادرة على وقف سباق التسليح في الشرق الاوسط.

\* أستاذ العلوم السياسية في جامعة باريس الاولى.

ونووية وجراثومية. فالعراق طور صواريخ «الحسين» (٦٥٠ كلم) و«العباس» (٩٠٠ كلم) و«تموز» (١٨٥٠ كلم). وسورية لديها «سكود» (٣٠٠ كلم) و«داس.اس» ٢١، الدقيقة الاصابة. ونجد انواعا اخرى من هذه الصواريخ في الجزائر وليبيا ومصر ودول اخرى... ولدى اسرائيل صواريخ عدة مشابهة، وهي تطور حاليا أنظمة لصواريخ مضادة للصواريخ. - وتحاول دول المنطقة (بدءا باسرائيل والعراق) تطوير وسائل المراقبة بالاقمار الاصطناعية، او بشراء طائرات الرادار العملاقة من طراز «واكس».

هذه بعض عناصر الصورة الحالية، وهي تتطور مع تسارع وتيرة سباق التسليح، والمباغت الثمن. ومن الواضح تماما ان هذا السباق سيستمر ويتصاعد ما دامت نزاعات المنطقة بقيت بلا حل. وسيبقى قرار قمة بغداد نظريا بحتا ان لم يلق صدق. ومن الواضح ان ليس من مصلحة اسرائيل تفجير حرب لمنع هذا السباق، اولا لأنها غير قادرة على منع العرب من استعمال كل الوسائل التي في متناول ايديهم، ولأن مصانع السلاح العربية اصبحت كثيرة ومتفرقة بحيث يصعب ضربها في آن، ولأن الفارق بين صناعات ادوية ومصنع اسلحة كيماوية ليس واضحا. ثم ان اسرائيل في حاجة حاليا الى نوع من الطمانينة النسبية التي تسمح لها باستيعاب اكبر عدد ممكن من المهاجرين السوفيات، قبل ان ينقطع سيلهم الهائل لسبب او لآخر.

وان كانت اسرائيل تفضل بقاء الامور كما هي في الاجمال، على الاقل ريثما يوطن المهاجرون الجدد، فلا ينبغي على العرب ان يعدوا كثيرا بقدراتهم الجديدة. فميزان القوى العسكري لا يزال يميل بوضوح الى مصلحة اسرائيل في مجال التكنولوجيا التقليدية، والاستعداد للحرب. كما ان اسرائيل هي، ولفترة قد تدوم خمس سنوات من الآن، الدولة الوحيدة ذات القدرات النووية، في مقابل امكانات كيماوية عربية اقل، تزداد وتكثر ثم ان المساعدات الاميركية لاسرائيل هي على حالها، رغم ان غياب سورية عن قمة بغداد يشير في حد ذاته الى النقص الدائم في التضامن العربي.

بكلام آخر، فان الطرفين اصبحا في وضع دفاعي افضل من السابق، والطرف العربي ضاعف قدراته الدفاعية في صورة ملموسة. لكن الهجوم اصبح للطرفين اصعب من السابق بسبب صعوبة تقدير اللحظة التي قد يلجا فيها هذا الطرف او ذاك الى استعمال اسلحة دمار شامل. كما يصعب تقدير نوع الكلام الرادع الذي يمنع الطرف الاخر من المبادرة خوفا من رد عنيف يطاول